

عبرة من التاريخ كلمات تذهب بملك آل صفرة

للمؤرخ الكبير : الشيخ عبد الوهاب النجار

أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية أصول الدين

- ٤ -

تأتى الرياح بما لا يشتهي السفن : كان حميد بن المهلب وهو ذاهب إلى البصرة مقتبلاً بما أتى راجياً حمد منبة سراه ، غير حاسب لما تأتى به الأقدار من إحباط مسعاه حساباً ، فجاءه من الشر ما لم يحتسب ، وتقطعت به الأسباب في كلمتين :
ذلك أن الوفد - وفد الأمان - لقي في طريقه المنيرة بن زياد بن عمرو العتكي ، يريد الشام فاراً من يزيد ، فسأل خالداً وعمراً سرّاً من حميد ، وقال لهما : ما تريدان ؟ فأخبراه بأمان يزيد بن المهلب ، فقال : إن يزيد قد ظهر على البصرة وقتل القتلى وحبس عدياً بن أرمطة أميرها فارجعوا .

ما كان من حق خالد وعمرو أن يرجعاً في حافرتيها لجرّد ذلك الخبر ، بل كان عليهما أن يبلغا يزيد كتاب الأمان وينتظرا ما يرد به عليهما ، ولكنهما قفلا راجعين ، وأخذوا حميداً معهما ، ولم يجد استعطاف حميد لهما ، إذ قال لهما :

« أنشدك الله أن تخالفنا ما بعثنا به ، فإن ابن المهلب قابل منكماً ، وإن هذا وأهل بيته لنا أعداء ، فلا تسمعوا مقالته » فلم يصغيا إليه ورجعا به إلى يزيد . وهنا تبدأ مصيبة آل المهلب .
في الكوفة : قام عبد الحميد بن عبد الرحمن وإلى الكوفة - حين ترامت إليه أخبار يزيد - فأوثق خالد بن يزيد ، وعبد الملك بن زحر ، ولم يكونا في شيء من أمر يزيد ، ولم يغمسا في التمتة يداً ، وبعث بهما إلى الشام فلم يفارقا السجن حتى هلكا فيه .

الجد من يزيد بن عبد الملك : حينئذ شمر يزيد بن عبد الملك عن ساعده ، وأعد جيشاً لملاقاة يزيد بن المهلب بالعراق ، قوامه سبعون أو ثمانون ألف مقاتل ، قائداه مسامة بن عبد الملك ، والعباس بن الوليد بن عبد الملك ، وأرسل بالأموال تفرق في أهل الكوفة .

نرجع بالكلام إلى يزيد بن المهلب بالبصرة ، فقد اتسق له الأمر وتقدت كلمته فيهم ، وفرق عماله في الأهواز وفارس وكرمان ، وبعث أخاه مدركا إلى خراسان فصرفه من بها من قومه من أزدشنوءة قائلين : « إنك أحب الناس إلينا وقد خرج أخوك ، فإن يظهر فأتنا ذلك لنا ونحن أسرع الناس إليكم وأحقهم بذلك ، وإن تكن الأخرى فالك في أن تغشينا البلاء راحة » فانصرف عنهم .

جمع يزيد الجنود : لما علم يزيد بن المهلب أن جيوش الشام على قدم المسير إليه والالتقاء به جمع أهل البصرة وخطبهم وأخبرهم أنه يدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ويحثهم على الجهاد ويزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثواباً من جهاد الديلم ، ثم أخذ يشجع جنباؤه ويحفز الناكل منهم ، ويهون عليهم شأن أهل الشام ويحقر مسلمة ويقول من بعض خطبه :

« قد رأيت أهل العسكر وخوفهم يقولون : جاء أهل الشام ومسلمة ، وما أهل الشام ؟ هل هم إلا تسعة أسياف ، سبعة منها لي ، وسيفان على ؟ وما مسلمة إلا جرادة صفراء ، أنا كم في برابرهم وجرامته وجراحه وأنباط وأبناء فلاحين وأوباش وأخلاق ، أو ليسوا بشراً يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ؟ »

المعارضون ليزيد بن المهلب من أهل البصرة : لم يرتفع صوت بمعارضة يزيد بن المهلب سوى صوت الحسن البصري التابعي الشهير ، لاحقاً في بني أمية ، فقد كانوا عنده فسقة ظالمة ، ولكنه كان رجلاً يكره الفتن ولا يرى من ورائها خيراً ، وقد رأى فتنة الجمل وأثرها في البصرة ، وقتل الحسين وما أحدث ، وفتنة ابن الزبير وما جلبت على مكة وأهلها والبيت والمسلمين من الضرر ، ووقعة الحرة وسوء أثرها ، ووقائع الخوارج وما أحدثت من الرعب والخوف في قلوب المسلمين ، فهو يكره هذه الأمور ويرى أن قيام يزيد لم يكن في باطن الأمر لأحقاق حق ولا لأبطال باطل .

روى ابن الأثير أن الحسن البصري كان يسمع خطبة يزيد فرفع صوته قائلاً : لقد رأيتك والياً ومولياً عليك فما ينبغي لك ذلك ، يريد أننا رأيناك راضياً بسلطان بني أمية وأنت رعية مسوس ، كما رأيناك راضياً به وأنت وال والحال لم تتغير ، فلا ينبغي لك أن تحدث الفتنة لهواك . أما يزيد بن المهلب فاحتملها للحسن ولم يشأ أن يحدث صدعاً في صفوف من اجتمعوا له بمحاجة الحسن أو إيصال الأذى إليه ، وأما أصحاب الحسن فأشفقوا عليه أن يمسه يزيد بأذى فأخذوا بفضه ثم خرجوا به من المسجد .

كان على باب المسجد النضر بن أنس بن مالك خادم رسول الله ، وكان ممن يحطب في جبل يزيد بن المهلب يقول : يا عباد الله ! ماذا تنقمون من أن تحببوا إلى كتاب الله وسنة نبيه ؟ فوالله ما رأينا ذلك مذ ولوا علينا إلا أيام عمر بن عبد العزيز . فقال الحسن : والنضر أيضاً قد شهد ؟

وقد مر الحسن بالناس وقد نصبوا الرايات وهم ينتظرون خروج يزيد ويقولون : يدعوننا إلى سنة العمرين ؟ فلم يطق الحسن البصري صبراً ، فقال : كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ، ثم يرسلها إلى بني مروان يريد رضاهم ، فلما غضب نصب قصباً ثم وضع

عليها خرقاً ثم قال : إني خالفتهم خالفوهم ، فقال هؤلاء نعم ، ثم قال : إني أدعوهم إلى سنة العمرين ، وإن من سنة العمرين أن يوضع في رجله قيد ثم يرد إلى محبسه .
 أنبري للحسن بعض أصحابه وقالوا له : لكأنك راض عن أهل الشام ، فقال : أنا راض عن أهل الشام ؟ قبّحهم الله وبرحهم ؛ أليس هم الذين أحلوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتلون أهله ثلاثاً ؟ قد أباحوها لأنباطهم وأقباطهم يحلون الحرائر ذوات الدين لا ينتهون عن انتهاك حرمة ، ثم خرجوا إلى بيت الله الحرام فهدموا الكعبة وأوقدوا الناريين أحجارها وأستارها ؛ عليهم لعنة الله وسوء الدار .

ومن الأمور التي وقعت للحسن البصري ، وكان دائم التشبيط عن يزيد بن المهلب ، وكان يزيد قد زحف بالجيوش للقاء جيوش الشام وخلف أخاه مروان بن المهلب والياً على البصرة ؛ فبلغ مروان ما يقوله الحسن البصري .

قام في الناس فقال : بلغني أن هذا الشيخ الضال المرائي (ولم يسمه) يثبط الناس ، والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل يعرف أئنه ، وإيم الله ليكن عن ذكرنا وعن جمعه إليه سقاط الأبله وعلوج فرات البصرة ، أو لأنحين عليه مردياً خشناً .

بلغ ذلك من قوله الحسن ، فقال : والله ليكرمني الله بهوانه ، فقال ناس من أصحابه : والله لو أرادك ثم شئت لمنعناك . فقال لهم : فقد خالفتكم إذ ذاك إلى ما نهيتكم عنه : **أكرم** لا يقتل بعضهم بعضاً مع غيري ، وأمركم أن يقتل بعضهم بعضاً دوني ؟
 بلغ قول أصحاب الحسن مروان ، فاشتد عليهم وطلبهم فتفرقوا وكف عن الحسن .

وقتل ابن خلكان أن الحسن البصري قال يوماً في مجلسه : يا عجباً لفاسق من الفاسقين ومارق من المارقين ، غبر برهة من دهره ، ينهك الله في هؤلاء كل حرمة ، ويركب له فيهم كل معصية ، ويأكل ما أكلوا ، ويقتل من قتلوا ، حتى إذا منعه لما ظن كان يتلطفها ، قال : أنا لله غضبان فاعضبوا ، ونصب قصباً عليها خرق وتبعه رجاجة رعا عهباء ، ما لهم أفئدة ، وقال أدعوكم إلى سنة عمر بن عبد العزيز ؛ ألا وإن من سنة عمر أن توضع رجلاه في قيد ، ثم يوضع حيث وضعه عمر ؛ فقال له رجل : أتعذر أهل الشام يا أبا سعيد ؟ - يعني بنى أمية - فقال : أنا أعذرهم ؟ لا أعذرهم الله - والله لقد حدث ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم إني قد حرمت المدينة بما حرمت به بلدك مكة ؛ فدخلها أهل الشام ثلاثاً لا يغلق لها باب إلا أحرق بما فيه ؛ حتى أن الأقباط والأنباط ليدخلون على نساء قريش فينزعون خمرهن من رءوسهن وخالخلهن من أرجلهن بسيوفهم على عواتقهم وكتاب الله تحت أرجلهم . أنا أقتل تقسى لفاسقين تنازعا هذا الأمر ؛ والله لو ددت أن الأرض أخذتها خسفاً جميعاً .

فبلغ ذلك يزيد بن المهلب فأتى الحسن هو وبعض بنى عمه إلى حلقة في المسجد متكررين

فسلموا عليه ثم خلوا به وصار الناس ينظرون إليهم ، فلاحاه يزيد ، فدخل في ملاحظتهما ابن عم
يزيد ، فقال له الحسن : فما أنت وذاك يا بن اللخناء . فاختلط سيفه ليضربه به ، فقال يزيد ماتصنع ؟
قال أقتله ، فقال له يزيد : أغمد سيفك ، فوالله لو فعلت ذلك لا قلب من معنا علينا .

استشارة يزيد بن المهلب رؤساء جنده : لما تهيأ يزيد بن المهلب للمسير إلى واسط وانتظار
جند الشام ، جمع رؤساء جنده وأجال الرأي معهم فيما يفعل .

كان رأى حبيب بن المهلب وغيره أن قالوا : الرأي أن تخرج وتنزل بفارس ، فنأخذ بالشعاب
والعقاب ، وندنو من خراسان ، ونطاول أهل الشام ، فإن أهل الجبال يأتون إليك وفي يدك القلاع
والحصون ، فقال يزيد : ليس هذا برأى ، أتريدون أن تجعلوني طائراً على رأس جبل ؟ فقال حبيب :
إن الرأي الذي كان ينبغي أن يكون أول الأمر قد فات ، قد أمرتك حيث ظهرت على البصرة ،
أن توجه خيلاً عليها بعض أهل الكوفة ، وإنما بها عبد الحميد مرت به في سبعين رجلاً
فعجز عنك ، فهو عن خيلك أعجز ، فسبق إليها أهل الشام وأكثر أهلها يرون رأيك ، ولأن تلى
عليهم أحب إليهم من أن يلى عليهم أهل الشام فلم تطعني ، وأنا أشير الآن برأى : سرح مع
بعض أهلك خيلاً كثيرة من خيلك فتأتى الجزيرة ويسيروا إليها حتى ينزلوا حصناً من حصونهم
وتسير في إثرهم . فإذا أقبل أهل الشام يريدونك لم يدعهم جندك بالجزيرة يتقبلون إليك
فيقيموا عليهم ، فيحبسوك عنك حتى تأتهم ويأتيك من الموصل من قومك (أزد الموصل)
وينفض إليك أهل العراق وأهل النغور وتقاتلهم في أرض رخيصة السر ، وقد جعلت
العراق كله وراء ظهرك . قال : أكره أن أقطع جيشي .

خرج يزيد بن المهلب إلى واسط ، وبعد أن أراح بها مدة خرج عنها وترك ابنه ، ماوية
ومعه بيت المال والأسرى ، ويم بجيشه الكوفة ونزل موضعاً يقال له (العقر) وقدم أخاه عبد
الملك نحو الكوفة في جند ، فالتقى بجيش العباس بن الوليد فاصطدم الجيشان وانتهى الأمر
بهزيمة جيش عبد الملك .

قواد الجيوش : كان قواد الجيش عند يزيد بن المهلب :

- (١) عبد الله بن سفيان بن يزيد بن المغفل الأزدي : على أهل الكوفة وأهل المدينة .
- (٢) أسد بن النعمان بن إبراهيم بن الأشتر : على مدحج وأسد .
- (٣) محمد بن اسحق بن الأشعث : على كندة وربيعة .
- (٤) حنظلة بن عتاب بن ورقاء التميمي : على تميم وهدان .
- (٥) المنفضل بن المهلب : القائد العام للميدان .

وقد علمنا أن جند الشام كانوا جيشين : أحدهما مع مسلمة ، والآخر مع العباس بن الوليد .
فأما جيش مسلمة فقواده :

(١) جبلة بن مخرمة الكندي على الميمنة.

(٢) الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي: على الميسرة .

(٣) مسلمة بن عبد الملك: القائد العام للعيدان.

وأما جيش العباس ففيه:

(١) سيف بن هانيء الهمداني: على الميمنة.

(٢) سويد بن القعقاع التميمي: على الميسرة.

(٣) مسلمة بن عبد الملك: القائد العام للعيدان.

وقد عي كل أمير جيشه تعيينه الحرب.

وقد ترأس يزيد بن المهلب ومسلمة فقال يزيد بن المهلب إنه يدعوهم إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسنة العمرين، فأظهر له مسلمة في الرد أنه قابل لكل ما شرط راض به، ولم يكن ذلك من مسلمة إلا دهاء ومكر حتى إذا استناموا إلى ذلك غدر بهم.

استشارة ابن المهلب أصحابه : استشار يزيد بن المهلب أصحابه في أنه يريد أن يبيت مسلمة وجيشه بأن يبعث اثني عشر ألفاً مع أخيه محمد بن المهلب معهم الأكف والبراذع ليلقوها في الخندق المتحصن به جيش مسلمة ويمده بالرجال حتى إذا أصبح لحق به في بيضة الجند، وأنه يرجو النصر بهذا التدبير.

وكأنني بالرؤساء والبارزين من الناس في جيش يزيد قد كانوا على مثل ما كان نظراؤهم في جيش علي بن أبي طالب، ليس لهم تدبير ولا مكر ولا رأى أريب، فانبرى له السمياع من وجوه أصحابه وقال له: إنا قد دعونا القوم إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله، وأجابونا بأنهم قابلون ذلك منا، فلا ينبغي لنا أن نفدر بهم أو نمكر حتى يردوا علينا، وقال رؤبة رئيس الطائفة المرجئة وأصحابه، صدق: هكذا ينبغي.

رد عليهم يزيد قائلا: ويحكم! أتصدقون بني أمية؟ إنهم يعملون بكتاب الله وسنة رسوله وقد ضيعوا ذلك منذ كانوا؟ إنهم يخادعونكم ليكروا بكم فلا يسبقوكم إليه، إني قد لقيت بني مروان فما لقيت منهم أمكر ولا أبعد غدراً من هذه الجرادة الصفراء (يعني مسلمة) فكان جوابهم: لا تفعل حتى يردوا علينا الذي قالوا.

هكذا غلب يزيد بن المهلب على رأيه وأفسد أصحابه عليه تدبيره، كما غلب علي بن أبي طالب على رأيه يوم رفع المصاحف.

عبد الوهاب النجار

(يتلى)